

سلسلة: إتحاف الحاضر والبادي بتفريغ أشرطة العلامة الشيخ محمد بن هادي (٣٨)

تفريغ الكلمة الختامية لدورة الإمام

مالك بن أنس - رحمه الله - الخامسة

المقامة في دولة السنغال

لفضيلة الشيخ العلامة

محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله -

اعتناء

أبي قصي المدني

- عفا الله عنه وعن والديه ومشايخه والمسلمين أجمعين -

بسم الله الرحمن الرحيم

الكلمة الختامية لدورة الإمام مالك بن أنس - رحمه الله - الخامسة المقامة في دولة السنغال

لفضيلة الشيخ العلامة د. محمد بن هادي المدخلي - حفظه الله - (١)

مُقدِّم الكلمة: بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلّم على

نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

يسرنا أن نستضيف شيخنا ووالدنا الشيخ محمد بن هادي - حفظه الله تعالى - في كلمة

ختامية لدورة الإمام مالك الخامسة، فنسأل الله - تبارك وتعالى - أن ينفع بها الجميع، فتفضلوا
يا شيخنا وبارك فيكم.

الشيخ: «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وحياكم الله - معاشر الإخوة والأبناء

والأحبة - في السنغال وفي كل مكان، ونسأل الله - جلّ وعلا - أن يوفقنا وإياكم لما يحبه
ويرضاه في دنيانا ويقربنا إليه في أخرانا.

أيها الإخوة في الله:

نحمد الله - تبارك وتعالى - وهو للحمد أهلّ على ما منّ به - سبحانه وتعالى - ووفّقنا

وإياكم إليه من هذه اللقاءات في هذه الدورة دورة الإمام مالك بن أنس وفي مسجد الإمام
مالك بجمهورية السنغال الإسلامية.

أقول:

إنّ هذا لتوفيقٍ من الله يجب علينا أن نحمد الله - سبحانه وتعالى - عليه، وأن نشكره

- سبحانه وتعالى -؛ لأنه هو القائل: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ^ط﴾

(١) ألقاها فضيلته - عبر الهاتف - مساء الأحد ٨ ربيع الأول ١٤٤٢ هـ بالمدينة النبوية.

[إبراهيم: ٧]، فله الحمد ظاهراً وباطناً على نعمه العظيمة وآلائه الجسيمة والتي أعظمها بعد الإيمان بالله الهداية إلى طريق الفقه في الدين، فإن: «مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ» (١).

وَنُصَلِّيْ وَنُسَلِّمْ - أنا وإياكم جميعاً معاشر الأحبة المستمعين - على خير البرية أجمعين، رسول رب العالمين، ورحمته المهداة - صلوات الله وسلامه عليه - نُصَلِّي وَنُسَلِّمْ عليه كما أمرنا الله - جلَّ وعز - في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فاللهم صلِّ وسلِّم وبارك على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد:

فإننا في هذه الليلة - ليلة الاثنين - الموافق لليلة التاسعة من شهر ربيع الأول، وقد وصلنا إلى الختام لهذه الدورة، إنَّ الواجب علينا - معاشر الإخوة - أن نفرح بما مَنَّ الله به - سبحانه وتعالى - علينا من التوفيق لسلوك طريق العلم، ولحضور مثل هذه اللقاءات والدورات العلمية الشرعية التي ينفع الله - سبحانه وتعالى - بها حاضرها، ومستمعها في دينه ودنياه، يجب علينا أن نحمد الله - سبحانه وتعالى - على هذه النعمة.

كما يجب علينا ثانياً أن نحافظ على هذه النعمة؛ نعمة ما حصَّلناه من العلوم النافعة في هذه الدورة في جميع الفنون التي دُرِّسَتْ فيها، وإنَّ المحافظة على هذه النعمة تكون بتعهدنا؛ وذلك بمراجعة ما أخذناه وإياكم فيها، فإنَّ كان من محفوظاتنا أزددنا حفاظاً عليه؛ وذلك بتكريره لتقريره في القلوب:

فَلَا يُمِلَّنَا مَا تَكْرَرَا لَعَلَّهُ يَحْلُو إِذَا تَقَرَّرَا (٢)

(١) رواه البخاري في «صحيحه» برقم (٧١)، ومسلم في «صحيحه» برقم (١٠٣٧).

(٢) من منظومة الشيخ حافظ الحكمي - رحمه الله -: «اللؤلؤ المكنون في أحوال الأسانيد والمتون».

فما تكرر تقرر، أقول -معاشر الأحبة-: ما تكرر تقرر، فإنَّ التكرار يورث التقرار،

التكرار يورث القرار للمحفوظات وللعلوم، فإذا جاء الإنسان إلى محفوظه وراجعته، وحرص على تقريره؛ فإنه يقوم بحق هذه النعمة -وأعني بحقها المحافظة عليها وعدم إهدارها وإذهاها- لأنه كما قيل:

الْعِلْمُ صَيْدٌ وَالْكِتَابَةُ قَيْدُهُ قَيْدُ صُيُودِكَ بِالْحَبَالِ الْمُوثَقَةُ
فَمَنْ الْحَمَاقَةُ أَنْ تَصِيدَ غَزَالَةً وَتَفُكَّهَا بَيْنَ الْخَلَائِقِ طَالِقَةً (١)

وإذا كان كذلك: فهذا يوجب علينا أن نحافظ على هذا الذي مَنَّ الله به -سبحانه وتعالى- علينا -أعني: العلم الذي تعلمناه في هذه الدورة- فنكرِّره حتى نُقرِّره في قلوبنا، وإن كان بالنسبة لبعضنا جديداً؛ فإن الحفاظ عليه بتكريره حتى يرسخ في القلوب، لأنَّ العلم هو الذي يستقر في القلب، ويستحضره صاحبه متى شاء، فهذا هو العلم الذي يكون معك في قلبك أينما كنت، وتستحضره متى شئت، فإذا كان كذلك فهذا الذي ينبغي لك أن تفرح به، وأن تعدّه من أعظم ذخرك الذي مَنَّ الله -سبحانه وتعالى- به عليك، فحَصِّلته، وعلمته، وأصلَّت به علمك؛ فإنَّ هذا المحفوظ هو الذي يشرف به طالب العلم، ويظهر، ويعلو على أقرانه، فإذا ضيَّع الأقران العلم وحفظته أنت؛ ظهرت عليهم، وتقدَّمت عليهم، وسبقتهم في هذا الباب؛ فيجب علينا -معاشر الأحبة- أن نحافظ على ما أخذنا؛ وذلك كما قلت بتكرار هذه المتون حتى يحصل القرار لها في القلوب.

الثالث -معاشر الأحبة- الذي أوصيكم به: مراجعة الشروح على هذه المتون التي

أخذتموها وسمعتكم جميعاً شرحها من هؤلاء المشايخ الفضلاء الذين تكرموا عليكم وأفادوكم بشرح هذه المتون، هل هذا الذي حَصَلَ لكم -أعني من الشرح والتبيان- هل استوعبتموه؟

(١) انظر: «أنس المسجون وراحة المحزون» (ص ٣٣).

فإذا سألتهم أنفسهم هذا السؤال فإنكم سيكون الجواب كالآتي: إما نعم، وإما لا، وأما بين
بين، فإن كان لا فعليك أن تتفقد نفسك -أيها الطالب للعلم- لتعرف الموانع التي منعتك من
الاستفادة، وإن كان بين بين فأيضاً مثل الأول؛ عليك أن تعرف الموانع التي كانت سبباً في
إضعاف الفهم ونقصه، فتعمل بكل ما تستطيع على معالجتها، فإن هذه الموانع التي تشوش
عليك -يا طالب العلم- عليك أن تستعين بالله على القضاء عليها، والقضاء عليها يكون:
- بمعرفة أسبابها.

- والبعد عنها، فيتهياً لك حينئذٍ ما تريد.

ومن أعظم ما يعينك بعد الله -جلّ وعلا- في هذه الحال: أن تلزم أخاك مجتهداً في

هذا الباب يعينك ويكملك في هذا الجانب، فما فاتك استدركته منه، وما لم تفهمه وضح له،
فتستعين به بعد الله -تبارك وتعالى- في سدّ الخلل الذي حصل عندك.

وإن كنت قد أتقنت فإن هذا هو المطلوب، وعليك أن تختبر نفسك بوضع سوالاتٍ
واستظهار الإجابة عليها عن ظهر قلب، أو تلخيصاً تلخصه أنت في كل درسٍ عن ظهر قلب،
ثم تعرضه على ما كتبت أو على ما سمعت مما هو موجودٌ عندك، فإن رأيت المطابقة فالحمد
لله، وإن رأيت شيئاً من النقص استكملته، وأعدت القراءة مرةً أخرى؛ حتى يستقر هذا الشرح
في قلبك، لأن هذه المرة الثانية تدقيق للمرة الأولى:

وَإِنَّمَا التَّعْلِيمُ بِالتَّعَلُّمِ وَالْحِفْظُ وَالتَّدْقِيقُ وَالتَّفْهِيمُ^(١)

حفظ المتن، وتدقيق الحفظ، ثم التفهم فيه؛ فهذه هي الثمرة، فإذا وصلت -أيها الطالب

للعلم- مع إتقانك للحفظ إلى إتقان الفهم، فهذا هو أعلى المراتب التي أشار إليها النبي ﷺ

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله -تحقيق أبو يعقوب المصري» (٢/ ٨٦).

في قوله: (رُبَّ حَامِلٍ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهِ، وَرُبَّ حَامِلٍ فَقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ) (١) هذا الفهم، فإنَّ الفقه هو الفهم، والأولى هي الحفظ، وذلك في قوله عليه الصلاة والسلام: (نَضَرَ اللَّهُ أَمْرًا سَمِعَ مِنْهُ حَدِيثًا فَحَفِظَهُ فَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ)، فقوله: (حَفِظَهُ) هذه هي الرتبة الأولى، الثانية تبليغه بعد التأكد منه أنك ضبطته كما سمعته، فهذا هو العلم -يا معاشر الأحبة-، ولا أحب الإطالة عليكم في هذا الجانب كثيرًا، لكن هذه النقاط الثلاث أو الأربع هي التي يعرف بها الإنسان نفسه، وهل حَصَلَ من مجالس العلم واستفاد أم أنه لم يُحَصَّل، ولم يستفد، أو حَصَلَ حصيلة ضعيفة ليست معتبرة في مقابل الجهد الذي بذله في هذه اللقاءات وفي حضور هذه الدروس. فالله الله -يا معشر الإخوان- بهذا الذي ذكرت، والاعتناء به.

والله الله أوصيكم وصيةً خاتمة: بالحرص على الأوقات؛ فإنَّ الوقت أنفس ما عينا -نحن معاشر المسلمين- بحفظه.

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣]، فالعلم (٢) أنفس ما عينا بحفظه، وأنت إذا ضيَّعته وفرَّطت فيه؛ فإنك أنت الخسران وأنت المغبون.

والوقت هذا الذي أنت تستغرقه في أعمالك وأفعالك إما أن تستعمله وتستغرقه فيها يعود عليك بالنافع، وإما أن يذهب عليك سُدىً، نسأل الله العافية والسلامة.

ولهذا قال -جلَّ وعلا-: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ١-٣].

(١) رواه أبو داود في «سننه» برقم (٣٦٦٠)، والترمذي في «جامعه» برقم (٢٦٥٦)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٣٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» برقم (٤٠٤).

(٢) لعلها سبق لسان من الشيخ -حفظه الله-، والمراد من سياق الكلام: الوقت، والله أعلم.

فهذا الوقت نحن أنفس ما يجب علينا أن نحافظ عليه ممّا أعطيناه من النفائس، هو هذا الوقت، وأعظم ما يصرف فيه هو العلم؛ لأنّ العلم هو المصحّح للأعمال - كما قلنا سابقاً -، وهو المصحّح للنيات، فكم من إنسان بدأ بالعلم ونيته مخلوطة، يريد شيئاً من الدنيا، فمع تقدمه في التعلم واطّلاعه على النصوص المرهبة والمخوِّفة من أن يتعلم لغير الله؛ يورثه هذا العلم الخوف من الله والخشية.

ولهذا قال السلف: (طلبنا هذا العلم للدنيا فأبى أن يكون إلا لله)^(١) يعني أول ما يكون الطلب في الصّغر يكون شيئاً من هذا، يخالط النية، لكنه إذا تقدّم في السن وفي العلم وقرأ هذه النصوص المخوِّفة كمثّل قوله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْماً مِمَّا يُتَغَنَّى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ، لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ عَرَضاً مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَرْخَ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ»^(٢)، فحينما يسمع مثل هذا النص فإنه يورثه ذلك الخوف من الله - تبارك وتعالى - من أن يطلب بعمل الآخرة الدنيا، فتصح عنده حينئذٍ النية.

وإذا كان الأمر كذلك فعلى الإنسان أن يحرص على وقته، فلا يصرفه إلا في النافع، والعلم هو أنفع ما يكون للإنسان، وإذا أعطيته كُلك أعطاك بعضه، فكيف إذا لم تعطه شيئاً أو أعطيته من الوقت شيئاً يسيراً؟

واليوم كثير منا يجلس المجالس الطويلة العريضة، وفيها الوقت الكثير ويخرج منها بلا فائدة، أو بفائدة قليلة - مع الأسف -.

(١) انظر: «جامع بيان العلم وفضله - تحقيق أبو يعقوب المصري» (٢/ ٢٣٥) فإنه ذكر آثاراً عن السلف في هذا المعنى تحت باب: (باب الخبر عن العلم أنه يقود إلى الله تعالى على كل حال).

(٢) رواه أبو داود في «سننه» برقم (٣٦٦٤)، وصححه الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٤١٢)، وابن ماجه في «سننه» برقم (٢٥٢)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٤٨).

فالله الله -يا معاشر الأحبة- في الحرص على هذه الأوقات التي الله -سبحانه وتعالى-
قد استأمننا عليها، واستعملها فيما ينفعنا في ديانا وفي أخرانا.

والوقت -كما قيل -: كالسيف إن لم تقطعه قطعك، ويومك إذا ذهب لا يعود، وكل يوم
يمر عليك لا تستفيد فيه علماً وتحصّل فيه علماً؛ فاعلم أنّ هذا اليوم من أعظم الأيام التي
خسرتها.

فنسأل الله -سبحانه وتعالى- لنا ولكم التوفيق، كما نسأله -سبحانه وتعالى- أن يرزقنا
وإياكم جميعاً الفقه في دينه، والبصيرة فيه، والثبات على الحق والهدى حتّى نلقاه، وأن يعصمنا
وإياكم جميعاً -يا معاشر الأحبة- من مضلات الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يعيذنا وإياكم
من شرور أنفسنا، ومن نزغات الشيطان، إنه جواد كريم، وصلى الله وسلّم وبارك على عبده
ورسوله نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان إلى يوم الدين».

مُقدّم الكلمة: ما شاء الله، بارك الله فيكم يا شيخنا، وجزاكم الله خيراً.

الشيخ: «نسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يبارك فينا وفيكم جميعاً، وأن يبارك لنا ولكم في
أوقاتنا وأعمالنا وأعمالنا -بمنه وكرمه-».

مُقدّم الكلمة: آمين، نسأل الله أن يعيد علينا هذه الفرص أعواماً عديدة، وأزمنة مديدة،
ونحن نتمتع وإياكم بالصحة والعافية، أحسن الله إليكم وإلى جميع المشايخ، وإن شاء الله لو
يسّر لشيخنا ووالدنا أن تكون معنا لقاءات أيضاً شهرية أم حسب أوقاتكم ليسرنا ذلك بإذن
الله، بإذن الله.

الشيخ: «لعل الله -سبحانه وتعالى- أن ييسر لنا ولكم ذلك، وننظر إن شاء الله، ونسأل
الله الإعانة والتوفيق للجميع، كما نسأله الهداية والثبات على الحق والهدى».

مُقدّم الكلمة: آمين آمين يا شيخنا، بارك الله فيكم، وإلى لقاءٍ آخر.

الشيخ: «وفيكُم بَارِكُ وَالسَّلَامُ عَلَيْكُم وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، وَنَسْأَلُ اللَّهَ -جَلَّ وَعَلَا- أَنْ يَجْمَعَنَا وَإِيَّاكُم عَلَى خَيْرٍ فِي دَوْرَاتٍ قَادِمَةٍ، وَأَنْ يُخْتَمَ لَنَا وَلَكُمْ بِخَيْرٍ، وَأَنْ يُوْرَثَنَا وَإِيَّاكُمِ الْإِسْتِقَامَةَ، إِنَّهُ جَوَادٌ كَرِيمٌ، وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ نَبِينَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَتْبَاعِهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١).

اعْتِنَاءُ

أَبِي قُصَيِّ الْمَدَنِيِّ

-عَفَا اللَّهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ وَمَشَائِخِهِ وَالْمُسْلِمِينَ أَجْمَعِينَ-

فِي الْعِشْرِينَ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ عَامِ اثْنَيْنِ وَأَرْبَعِينَ وَأَرْبَعِمِئَةٍ وَأَلْفٍ مِنَ الْهِجْرَةِ

tafrigh-1438@hotmail.com

(١) إِلَى هُنَا انْتَهَتْ الْكَلِمَةُ الْخَتَامِيَّةُ، فَإِنْ أَصَبْتَ فِي عَمَلِي فَمِنْ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَمَا حَصَلَ مِنْ سَهْوٍ، أَوْ غَفْلَةٍ، أَوْ خَطَأٍ فَمِنْ نَفْسِي وَالشَّيْطَانِ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ.